أشهر مدن العالم القديم

وقفة على أطلالِ مدينة بابل الأثرية

تحقيق وتصوير: وليد عبد الأمير علوان

وأنا أتجول بين أطلال مدينة بابل الأثرية، حضرني بيتان من الشعر، قيلا بحق طلل واحد، وهما:

قفي قدميَّ في هذا المكان ... يغيبُ به المرء عن حسهِ
رمالٌ وأنقاض صرح هوتْ ... تبحثُ أعاليه عن أسهِ

وتساءلت مع نفسي، ماذا عسى أن يقول صاحب هذين البيتين عندما يشاهد أطلال أشهر مدينة من مدن الحضارة القديمة، ألا وهي مدينة بابل الأثرية!

مداخل القصور

Entradas a los palacios

مدينة، تعتبر واحدة من أشهر مدن العالم القديم، حيث ازدهرت خمسة عشر قرنا، عدت أسوارها وجنائنها من عجائب الدنيا السبع، سنت فيها أولى الشرائع في العالم، وشهدت أشهر سبي لليهود عرفه التاريخ، على أحد أبواب قصورها مات الإسكندر العظيم، ذكرت وبرجها الشهير في الكتب السماوية، التوراة، الإنجيل، والقرآن، يعود لأهلها الفضل في اكتشاف السنة الشمسية والسنة القمرية وظاهرتي الخسوف والكسوف، وهم أول من وضع حجر الأساس لعلم الفلك، وقسموا النهار إلى 24 ساعة، والساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية، تحدّث عنها بإعجاب المؤرخ اليوناني هيرودت، واعتبرها أرسطو أعجوبة في عظمتها وسعتها، إنها مدينة بابل، عاصمة الشرق سابقا ، وأشهر مدن العالم القديم.

الموقع والتسمية

تقع خرائب مدينة بابل الأثرية، على بعد 88 كم جنوب بغداد، وعلى بعد 5 كم شمال مدينة الحلة (بابل)، وتحديدا على المجرى القديم لنهر الفرات، والذي يعرف الآن بـ (شط الحلة)، حيث كان هذا الجزء من بلاد ما بين النهرين هو الأكثر خصوبة فيها، لقد جاء في تسميتها بالبابلية (باب-ايليم)، وبالاكدية (بابل) وتعني (باب الإله)، وقد قيل الكثير في أصل تسميتها، حيث ورد في العهد القديم/سفر التكوين؛ "...سميت بابل، لأن الرب بلبل لغة (أهل) الأرض، وشتتهم بعيدا عنها".

نشأة المدينة وتاريخها

نشأت مدينة بابل على هيئة قرية ثم بلدة في أواخر الألف الثالث ق.م، بالقرب من المدينة المقدّسة (كيش)، وقد جاء في تاريخها أن الأموريين، وهم من القبائل السامية، قد تمكنوا من الاستيلاء على بابل في بداية الألفية الثانية قبل الميلاد، وبعد سيطرتهم على المملكات المجاورة، قاموا بتأسيس سلالة بابل الأولى، واستطاع أشهر ملوكها (حمورابي)، من توحيد المملكات واتخاذ بابل عاصمة لها، إلا أنها لم تلبث أن سقطت بيد الحيثيين، ثم بعدهم الكوثيين، ثم الآشوريين، إلى أن

جانب من شارع الموكب Vista parcial de la Calle de la Procesión

بوابة عشتار بعد تحديثها La Puerta de Ishtar, renovada

احتلت من قبل الكلدانيين، والذين أعادوا إليها شهرتها الأولى، حيث أصبحت أشهر مدينة في العالم القديم، خصوصاً زمن الملك نبوخذ نصر، فخلال فترة حكمه امتدت المدينة لتشمل كلا ضفتي نهر الفرات، حيث كانت المدينة القديمة على الضفة الشرقية من النهر.

كانت مدينة بابل مستطيلة الشكل، يحيط بها سوران عظيمان، يقع خلفهما خندق للماء، أما السور الداخلي الذي كان يؤدي إلى المدينة فإنه كان ذا ثمانية أبواب.

كانت شوارع المدينة واسعة، ومعدّة على شكل شبكة محاورها الرئيسية موازية لنهر الفرات الذي كان يجري في وسطها. ومن معالمها معبد مردوخ العظيم مع زقورته الملحقة به، والتي تعرف بـ(برج بابل)، وهو بناء عظيم مخصص لآله السماء)مردوخ)، والذي يسمى (اتمانكي). والزقورة ذات سبعة طوابق، وفي أعلاها معبد مغلف بالطابوق المزجج الأزرق. ولم يبق من هذا البرج إلا قاعدته، بسبب الدمار الذي حل به بفعل عوامل الزمن. أشهر شوارعها كان شارع الموكب، وهو شارع ذو جدران مزينة بالأسود الملونة، والذي يتجه شمالا عبر بوابة عشتار المزينة بالثيران والتنانين الملونة، ثم يتجه نحو بيت اكيتو، وهو معبد صغير يقع خارج المدينة. وبوابة عشتار هي واحدة من ثمان بوابات حصينة يوجد إلى الغرب منها مجمّعان للقصور.

وإلى الشرق من شارع الموكب تقع منطقة كان فيها منذ أيام حمورابي منازل سكنية مبنية حول فناءات مركزية، وهي محاطة بعدّة أسوار، منها سور يلتقي بنهر الفرات، جنوب المدينة وشمالها، وهو يحيط قصرا آخر من الشمال، وبين السورين الداخلي والخارجي أرض مزروعة تمتد فيها شبكة من القنوات على شكل تل مشيّد بالأشجار وذي قباب، وهي التي تعرف بـ (الجنائن المعلّقة)، والتي قيل إن الملك البابلي نبوخذ نصر قد أمر ببنائها من أجل خلق بيئة مشابهة للبيئة التي كانت تعيش فيها زوجته، التي قام باصطحابها من منطقة جبلية، لكي يخفف عنها الشعور بغربة المكان. لقد تعرف عالم الآثار الألماني (ر.كولدواي)، على قاعدة تلك الجنائن، مع جزء من مجمّع القصر، وذلك في أوائل القرن العشرين.

أما أسد بابل، فمن المؤرخين من ينظر إليه على أنه رمز للقوة وإشارة واضحة إلى سيطرة البابليين على الشعوب المنكسرة، في حين أن البعض الآخر ينظر إليه على أنه يرمز إلى (حالة إخصاب)، بين الأسد رمز الفحولة، وتحته أنثى، رمز الأنوثة.

لقد كشفت أعمال التنقيب، عن أربعة معابد في القسم الشرقي من المدينة، وعلى طول نهر الفرات، كذلك وجود أرصفة موانئ ترسو فيها السفن التجارية، وهناك شواهد مكتوبة بأن بابل كانت مركزا تجاريا مع الجنوب، والتي يؤيدها العثور على بقايا آثار مخازن. كذلك كان على النهر جسر مقام على ركائز من طابوق مغلف بالحجر، يمتد من الجانب الغربي من المدينة.

أهم معالم المدينة

لعل من أهم معالم المدينة القديمة هي قصورها، وأهمها القصر الصيفي الذي كان يقع في الجزء الشمالي من المدينة، والقصر الأوسط الذي يقع في الجهة الشمالية الغربية من بوابة عشتار، والقصر الجنوبي الذي كان موقعه في الجزء الجنوبي الغربي من بوابة عشتار.

أما بوابات المدينة فكان عددها ثمان بوابات، أهمها بوابة عشتار التي تقع في الجهة الشمالية من سور المدينة الداخلي، وبوابة مردوخ التي كانت تقع في الجهة الغربية من المدينة، وبوابة اوراش التي كانت تقع في الجهة الجنوبية منها.

كذلك، فإن المدينة كانت تضم 35 معبدا كبيرا، إضافة إلى 36 معبدا صغيرا، أما

المسرح الإغريقي، والذي تم إنشاؤه في زمن الاسكندر العظيم، فقد ظل شاخصا حتى سنة 130 قبل الميلاد.

شارع الموكب

يعود تاريخه إلى زمن الملك نبوبولاصر، وقام بتجديده وتعليته عدة مرات ابنه نبوخذ نصر. طوله 1430م وعرضه حوالي متر، وقد صف بالآجر والقير ثم بالحجر الملون، واستخدم للاحتفالات الرسمية والدينية وخاصة أعياد رأس السنة البابلية. وقد زينت جدران الشارع الكائنة إلى شمال بوابة عشتار بنقوش تمثل الأسد، مع زخارف بالطابوق المزجج الملون.

القصر الجنوبي

بناه الملك نبوبلاصر، وجدد بنائه ابنه نبوخذ نصر الثاني (605–562) ق.م. تبلغ مساحته (52) ألف متر مربع، يطل مدخله الرئيسي الشرقي على شارع الموكب، ويحتوي على خمس ساحات رئيسية و 5 قاعات و 200 غرفة. وأهم قاعات القصر هي قاعة العرش التي كان يدار العالم القديم من خلالها، والتي كانت تبلغ مساحتها ألف متر مربع، وكانت جدرانها الداخلية والخارجية مزينة بنقوش وزخارف مختلفة، وهي ذات ثلاثة بوابات . وكان هناك أيضا ممرات وساحات يفصل بعضها عن الآخر بوابات داخلية كبيرة.

ماذا حل بالمدينة؟

عندما بدأت حملات التنقيب في هذه المدينة، في بداية القرن العشرين، لم يتوقع أحد أن يكون الدمار والخراب الذي حل بهذه المدينة العظيمة قد وصل إلى هذا الحد، حيث أن معظم الطابوق الذي استخدم في بناء قصورها وأسوارها الداخلية قد تم نقله إلى مناطق أخرى. وبسبب أن معظم معابدها وأسوارها كانت قد بنيت من الطابوق الطيني، فان معظم المباني قد تأثرت وبدرجة كبيرة بفعل المياه والأمطار العاتية، ناهيك عن أن تغيير مجرى نهر الفرات، بفعل عوامل الزمن، قد أتى على البقية من مباني المدينة.

أما ما تم اكتشافه خلال حملات التنقيب فهو قصر نبوخذ نصر، ومعبد عشتار، ومعبد نابو ومعبد تنماخ. كما تم اكتشاف الجزء الأكبر من شارع الموكب وتحديدا الجزء الشمالي منه وبوابة عشتار والمسرح الإغريقي.

ماذا بقي من المدينة؟

الموقع الحالي هو حقل واسع من الخرائب فيه عدة تلال عالية، وأهمها تل بابل، وهو بقايا قصر نبوخذ نصر في الزاوية الشمالية من السور الخارجي، وتل العصر، ويشمل مجمّعا لقصر مع مبان أضيفت إليه في أيام الفرس، وبوابة عشتار، ومعبد ايماح، وتل المركز، وهو منطقة سكنية قديمة، وتل جمرة، ويحتوي على أنقاض أزالها الإسكندر من الزقورة تمهيدا لإعادة إعمارها، وفيه أيضا مدرج بناه الإسكندر، مواده مأخوذة من الزقورة، وأخيرا تل)ايشان أسود(، حيث يوجد معبدان آخران. كذلك هناك أنقاض تدعى الصحن تحدد الموقع السابق لإحدى الزقورات.

لم تكتف عوامل الزمن بما فعلته بالمدينة، حيث جاءت القوات العسكرية التي دخلت هذه المدينة بعد 2003/9/4 لتأتي على البقية الباقية منها، وذلك من خلال إقامة سواتر ترابية في مداخل المدينة، وكذلك قامت بإكساء مناطق واسعة بمادة الحصى، استخدمت فيها معدات ثقيلة لقلب التربة، مما تسبب بإتلاف عدد من الآثار. وبسبب الصيانة غير العلمية، وإنشاء البحيرات والأبنية والطرق والقصور التي أنشأها النظام السابق، وكذلك الأضرار التي لحقت بالمدينة بسبب تواجد القوات الغربية، فقد قامت منظمة (اليونسكو) بشطبها من قائمة التراث العالمي، والجهود مبذولة الآن لإعادة هذه المدينة الأثرية، إلى وضعها السابق، ضمن مناطق التراث العالمي. ■

الكاتب بجوار أسد بابل
El autor cerca del León de Babilonia

الأطلال والتحديث
Ruinas restauradas